

الصّورة الفنية للخيل بين الشعر العربي الفصيح والشعر الملحون

The artistic image of horses between classical Arabic poetry and popular poetry

د. عباسيّة بن سعيد*

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -
(الجزائر)

abbassia.bensaid@univ-tlemcen.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26

تاريخ القبول: 2025/12/17

تاريخ الاستلام: 2025/09/09

ملخص:

حظيت الخيل على مرّ العصور بمكانة مميّزة في الفكر الإنساني، فقد اكتسبت صورة قدسية عند الأمم والحضارات المختلفة، وبشكل خاص المجتمع العربي. إذ دفع تعلق العربي بفرسه إلى اعتباره أهمّ من أفراد ما جعله يكثر الاهتمام بها ويحافظ على أصولها، فهو لا يراعي في تربية جواده فقط الصفات الخارجية كالجمال والسرعة والطاعة والذكاء، وإنّما يربي فيه أيضا القوّة والصبر ومساندة صاحبها في المحن. وانتقلت هذه الثقافة مع القبائل الهلالية في نزوحها من أرض الحجاز إلى المغرب العربي. والشعر كان أصدق وسيلة لنقل هذا الوصف لحيوان له من الصفات ما يجعل الشاعر العربي سواء باللغة الفصيح أو العامية، أن ينعت به بأجمل الصور الفنية الخلقية والمعنوية. وهذه الدراسة تهدف إلى تحليل الصورة الفنية للخيل في هذين النمطين الشعريين من منظور بلاغي وثقافي، وتكتسب دراسة الصورة الفنية للخيل أهمية مضاعفة لما تعكسه من تطور في الحس الجمالي، وتحولات في الرؤية الاجتماعية والفكرية.

الكلمات المفتاحية: الصورة، الخيل، الشعر، الفصيح، الملحون.

Abstract

Throughout history, the horse has held a unique position in human consciousness, acquiring a near-sacred status in various cultures, particularly within Arab society. The deep-seated affection of the Arabs for their horses led them to prioritize these animals, devoting great care to their upkeep and the preservation of their pure bloodlines. Beyond cultivating external qualities such as beauty, speed, and obedience, Arabs also fostered inner strength, resilience, and loyalty in their steeds, expecting them to be steadfast companions in times of adversity. This cultural reverence was carried by the Hilalian tribes as they migrated from the Arabian Peninsula to the Maghreb.

* د. عباسيّة بن سعيد

Poetry has been the most authentic medium for conveying this deep appreciation, with poets—whether in classical or vernacular forms—employing the most sublime artistic and moral imagery to describe the horse. This study aims to analyze the artistic image of the horse in both classical (Fasih) and vernacular (Malhun) poetry from a rhetorical and cultural perspective. The examination of this artistic image is of heightened importance as it reflects the evolution of aesthetic sensibilities and the transformation of social and intellectual values over time.

Keywords: Image, Horse, Poetry, Classical Arabic, Malhun.

مقدمة

تحتل الخيل مكانة محورية في الذاكرة الثقافية العربية، فهي لم تكن مجرد وسيلة نقل أو أداة حرب، بل تحولت إلى رمز في عميق يتجاوز وظيفته المادية ليصبح جزءاً لا يتجزأ من الهوية العربية. لقد شكّلت صورة الخيل أحد أعرق الرموز التي رسختها المخيلة العربية، فكانت حاضرة بقوة في مختلف أشكال التعبير الأدبي، من الشعر الفصيح إلى الشعر الملحون، مما يجعلها مرآة تعكس تحولات الذوق الفني والمخيال الجمعي عبر العصور.

إن دراسة الصورة الفنية للخيل في الشعر الجاهلي ومقارنتها بنظيرتها في الشعر الملحون تمثل مدخلاً تحليلياً لفهم كيفية تطور هذا الرمز، وكيف تأثر بالتحولات الاجتماعية والثقافية. فالخيل في العصر الجاهلي كانت مرتبطة بشكل أساسي بالفروسية، العز، النخوة، والمجد القبلي، فجاءت صورتها الفنية مشحونة بعناصر القوة، السرعة، والبطولة. لقد أبدع الشعراء الجاهليون في وصف الخيل بأساليب بلاغية راقية، مستخدمين التشبيهات والاستعارات لتصويرها في ساحات المعركة والغزو، مع إبراز قيمتها الاجتماعية والروحية التي وصلت حدّ القداسة.

أما في الشعر الملحون، فقد شهدت صورة الخيل تحولاً نوعياً، إذ بقيت رمزاً للقوة والفخر، لكنها اكتسبت أبعاداً إنسانية ووجدانية أعمق. أصبحت الخيل رفيقاً حميماً يشارك الشاعر معه همومه وأفراحه، وتتداخل صورتها مع محيطه الاجتماعي والثقافي، لتظهر في سياقات أكثر حميمية كالحنين إلى الوطن، الغزل، والاحتفالات الشعبية مثل "الفانتازيا" و"الوعدة".

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف في تناول الشاعر العربي للخيل في كل من الشعر الفصيح والشعر الملحون. من خلال تحليل النصوص الشعرية، نسعى إلى تبيان كيف أنّ الشعر الملحون ورث كثيراً من الخصائص الفنية للشعر الفصيح، مع تطويعه ليتناسب مع البيئة الشفهية، اللغة العامية، والتحولات الاجتماعية التي أثّرت في المخيال الشعبي. سنبحث في كيفية انعكاس العلاقة العاطفية والرمزية بين الفارس وفرسه

على النصوص الشعرية في كلا العصرين، وكيف أنّ هذا الرمز الفني بقي حيًا ومستمرًا، يعكس قوة ومجد الشاعر، ولكنه يروي قصصًا مختلفة بتفاصيل متجددة.

أولاً: الصورة الفنية للخيل في الشعر الجاهلي

سُميت الخيل أو الخيول خيلاً لاختيائها في مشيتها دلالة على العز، ومن ركبها اعتزّ واختال، وجماعة الأفراس لا واحد له من لفظه.¹ وللخيل كثير من المسميات أطلقها عليها العربي من شدة اهتمامهم بها.² وقد أقسم الله تعالى بالخيل في كتابه العزيز لفضلها، وأطلق عليها صفات القوة في ساحة المعركة. شرح المفسرون "العاديات"³ هي الخيل التي تصدر أصواتاً إذا عدت، وتقذح من تحت حوافرها النار وتثير الغبار حين الإغارة. وقد جاءت في فضلها عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، منها: عن عبد الله بن عمر، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة".⁴ وقد استقى الشاعر من كلمات الحديث وصاغها في بيت قال فيه الجعفي:

الخيرُ ما شَرَقَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرَبَتْ مَعْلَقٌ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ مَعْقُودٌ⁵

وقال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بإناث الخيل فإنّ بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها".⁶ لما ورد في الحديثين دلالة على أنّ الخيل كان اسمها مرادفاً للخير والبركة والعزة والنخوة.

وقد أشار جماع اللغة القدماء إلى عناية العرب بالخيل، ومن بينهم ابن عبد ربه الذي أفرد جزء من كتابه العقد الفريد⁷، ذكر فيه جميع الأحاديث النبوية والأشعار الكثيرة التي وصفت الخيل. ونجد الجاحظ يقول: لم تكن أمة قط، أشدَّ عُجْباً بالخيل، ولا أعلم بها من العرب".⁸ ويؤكد الفكرة في قوله: "إنّا نفهم عن الفرس كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوده، كما نفهم إرادة الصبي في مهده، ونعلم - وهو من جليل العلم - أنّ بكاءه يدلّ على خلاف ما يدلّ عليه ضحكّه، وحممة الفرس عند رؤية المخلاة⁹ على خلاف ما يدلّ عليه عند رؤية الحجر".¹⁰

الخيل في الشعر العربي ليست مجرد أداة أو وسيلة، بل كيان في متكامل تتجلى فيه أبعاد متعددة: حسية ووجدانية وقيمية. وقد جاء وصف الخيل مشحوناً بعناصر الحركة والسرعة والجرأة، حيث يصورها الشعراء في لحظات الصيد والهجوم أو الدفاع عن النفس والعرض، ما يجعلها تمثّل الامتداد الرمزي لقوة الفارس نفسه. ومن أجل ما قيل في الخيل قصيدة للأمير عبد القادر الجزائري والتي ذكرها ابنه الأمير محمد في كتابه، اخترنا منها هذه الأبيات:¹¹

وَنَحْنُ فَوْقَ جِيَادِ الْخَيْلِ نَرْكُضُهَا شَلِيلُهَا زِينَةُ الْأَكْفَالِ وَالْخِصْرِ
نُطَارِدُ الْوَحْشَ وَالْغِرْلَانَ نَلْحَقُهَا عَلَى الْبَعَادِ وَمَا تَنْجُو مِنَ الضَّمَرِ
لَنَا الْمَهَارَى كَمَا الْمَهَا بِسُرْعَتِهَا بِهَا وَبِالْخَيْلِ نَلْنَا كُلَّ مُفْتَحَرِ

فَخَيْلُنَا دَائِمًا مُسَرَّجَةٌ مَنْ اسْتَعَاثَ بِنَا بَشْرُهُ بِالْوَطَرِ
عَدُونَنَا مَا لَهُ مَلَجًا وَلَا وَزَرَ وَعِنْدَنَا عَادِيَاتُ السَّبْقِ وَالظَّفَرِ

فالأمير عبد القادر ككلّ عربي، اشتهر بفروسيته وحبّه للخيل، نجده يفتخر بقوّتها وسرعتها في السلم والحرب. ولشدة الترابط بين العربي وفرسه، حتى أثره على نفسه وأهله وأولاده، فيجيب عياله ليشبع فرسه، كقول عبيدة بن ربيعة التميمي:

مُعَزَّةٌ مَكْرَمَةٌ عَلَيْنَا تَجُوعُ هَا الْعِيَالُ وَلَا تَجُوعُ¹²

فقد بالغ العرب في إكرام الخيل لشدة حبهم لها، فهي رمز العزة والزينة، وعلى ظهورها يقهر الأعداء، لقول شاعر من قبيلة بني عامر:¹³

بَنِي عَامِرٍ إِنَّ الْخَيْلَ وَقَايَةٌ لِأَنْفُسِكُمْ وَالْمَوْتُ وَقْتُ مُوجَلٍ
أَهْيُونَا هَا مَا تُكْرِمُونَ وَبَاشِرُوا صِيَانَتَهَا وَالصَّوْنُ لِلْخَيْلِ أَجْمَلُ

نجد امرئ القيس قد أعطى صورة فنية لفرسه الأسطوري في ثمانية عشر بيتاً من معلقته:¹⁴

مَكْرٍ مَفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخِرَ حَطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

يشبّه امرئ القيس فرسه بالصخرة العظيمة التي يدفعها السيل لقوّته وسرعة حركته. تلك القوة التي حدّدها الشاعر من خلال الوصف الجسدي لجواده من طول عنق وقوائم وصلابة بدن، ليجمع بين هذا الوصف وقوة وحيوية الشاعر. فالحصان رمز حيوي واجتماعي ونفسي، فلا يمكن للشاعر أن يتحمّل مسؤولية الذود عن الحمى والصيد لإعالة القبيلة، إلا باكتمال الرجولة والتي لا يراها المجتمع العربي تامة سوى باعتلاء جواد. كقول لبّيد بن ربيعة:¹⁵

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْحَيَّ تَحْمُلُ شَكَايَ فُرْطٌ وَشَاحِي إِذْ عَدَوْتُ لِحَامُهَا¹⁶

كما أنّ الحصان يظهر بصفات أخرى، فيشبّه الشاعر بالسرحان وهو من أسماء الذئب، فيما روى الأصمعي من شعر أبي حنزة لضمور بطنه وسرعة عدوه، في قوله:¹⁷

وَأَقْبَّ كَالسَّرْحَانِ تَمَّ لَهُ مَا بَيْنَ هَامَتِهِ إِلَى النَّسْرِ

تميّز الشعر الجاهلي بتوظيفه لصورة الخيل باعتبارها رمزاً للقوة والبأس والفروسية، وهي صورة ناتجة عن بيئة تعتمد على الغزو والتنقل. يُكثر شعراء الجاهلية من استخدام المحسنات البلاغية، مثل التشبيه والاستعارة والكناية، في وصف الخيل. على سبيل المثال، تشبيه الفرس بالسعلاة في بيت مالك الأشتر النخعي:

خَيْلاً كَأَمْثَالِ السَّعَالِي شُرْبًا تَعْدُو بَيْضٌ فِي الْكَرِيهِ شُوسٌ¹⁸

الشزب هي الخيل المضمرة، والسعالى مفردا سعالا وهي أنثى الغول، والشوس الغضبان المتكبر. شبه الشاعر الخيل بالسعالى لنحوها وخفّتها في الرّكض أثناء المعارك. وكأنّ الشاعر حرص على إبراز مكانة الخيل حين لجأ إلى نعتها بصفات أسطورية، وتشبيهها بحيوانات كان لها صدى أسطوري في الفكر العربي القديم، كالعقاب والغزال. وأبدع الشاعر في تشبيه الفرس بالعقاب لسرعتها في الانقضاض على فريسته، في ذلك يقول عمرو بن مالك:

وَسَابِحَ كَعَقَابِ الدَّجَنِ أَجْمَلُهُ دُونَ الْعِيَالِ لَهُ الْإِيثَارُ وَاللَّطْفُ¹⁹

وتحوّل الخيل إلى شاهد على البطولة، وعنصر إثبات للرجولة، كما تكتسب طابعاً شبه مقدّس في سياق التفاخر الفردي والقبلي. مما يعكس صورة مركبة تنقل ارتباط الشاعر بفرسه، لقول عنتر بن شداد²⁰:

هَلَّا سَأَلْتَ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعَلَمِي

وقد يصل الشاعر إلى استخدام دماء الخيل في طقوس جنائزية، تمثّلت في عقره على قبر الميت. ففي قصيدة لزياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب، ينعت الفرس بالطرف السابح وهو الجواد الكريم الطرفين (الأب والأم) السريع، كأنه يسبح بقوائمه: ²¹

فَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَأَعْقِرِي بِهِ كَوْمَ الْهَبْجَانِ وَكُلَّ طَرْفٍ سَابِحٍ
وَأَنْضَحِي جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدُمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذَبَائِحٍ

فعقر الفرس ونضح جوانب القبر بدُمائها لها ملامح طقوسية من الديانة الوثنية، فالعرب كانوا يقدمون القرابين لأصنامهم ويذبحونها على الأنصاب ثمّ يلطخونها بدُمائها، دلالة للتقرب إليها وطمعا في مساعدتها لهم. وتختلف العقيرة عن البليّة وهي الناقة أو الفرس التي تترك عند قبر الميت حتى تهلك جوعا وعطشا، فلا يمكن اعتبارها قربانا لأنّها مطيّة الهالك ودماها لا يراق على القبر. تعتبر هذه الممارسات الطقوسية من المعتقدات العربية الجاهلية نتاج عن الديانة الحنيفية، حيث من آمن بالبعث تحيّل أنّ دابته تبعث معه ليركبها للحشر.

وتذهب بعض الروايات ذات الطابع الأسطوري، أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الفرس من ريح الجنوب رمز الرخاء، لأنّها في اعتقادهم من الرياح اللوحيق ولذلك هي سريعة في عدوها. وهناك أساطير²² كثيرة عن خلق الخيل وعلاقتها بالأنبياء آدم وسليمان وإسماعيل وما تركبه الملائكة، وليس الموضوع مجالا للاستفاضة فيها.

وقد حرص العربي على المحافظة على أنساب الخيل²³، وعدم الخلط بين السلالات لقيمة هذا الكائن في قلبه وفي المجتمع العربي. حتى أنّه أطلق أسماء على الخيل، أصبحت مألوفا، ليتعرّفوا على الأصيل منها من غيره.

ثانياً: الصورة الفنية للخيل في الشعر الملحون²⁴:

تذكر الخيل في الشعر الملحون ليس فقط كرمز، بل كشخصية تمتلك هوية وصوتاً داخل النص. يصف الشاعر الشعبي فرسه بطريقة تعكس التقدير والانسجام العاطفي، كأنها مرآة لحالته النفسية. وتُستثمر خصائص الخيل كرموز لصفات إنسانية مثل الإخلاص، والغيرة، والحرية. كما تتداخل صورة الخيل أحياناً مع صورة المرأة، إذ نجد شاعر البدوي المستغامي الشيخ حمادة يقول في قصيدة غزلية:

يَا عَوْدِي وَاشْ بِيكَ رَاكَ اللَّاهَانِي كِي بُغِيَتْ تَرْيَخَ وَالرِّيمَ فِي عَقَابِكَ
وَنُضِّلَ مَعَ الْوُطَى تَسْدِي وَتَقَانِي كُلُّ يَوْمٍ تَقْسَمُ فِي ذَا الْحَمَادِ وَخَدِّكَ

هذه القصيدة من الغزل العذري، يحنّ الشاعر إلى معشوقته التي لا تبادله الشعور نفسه، وهو هنا يعتبره الفرس رفيقاً له، يشكو له همّه وحزنه الذي يتقاسمه معه، وهذا ما يدلّ على مكانة الخيل في قلب صاحبه.

كما نجد الشاعر الشعبي عبد القادر العطوي يحاور فرسه:

يَا عَوْدِي وَغَلَاةَ بَايَتْ فِي حِيرِهِ اُمْبَيْتَنِي لَيْلَةَ الْبَارَحِ حَايِرْ
تَرْخَفْتُ وَزَالَتْ عَلَيْكَ الطَّيْرَةُ اَمَالَفْ مَا تَهْدَأْشْ فِي رَايِكَ قَادِرْ

وكأنّ الشاعر يتقاسم الشعور بالحيرة مع حصانه طوال الليل، ثم يصف تعبهُ ووهنه بعد أن كان يسرع في ركضه كأنّه يطير، ثمّ يسترسل في تعداد أوصافه في بقية القصيدة. هذه الصور تبيّن مدى الانخراط العاطفي والاجتماعي الذي تحظى به الخيل في الشعر الملحون.

لا تغيب رمزية قوة الفرس في الشعر الشعبي، ولكنها تترافق مع معانٍ وجدانية مثل الحنين والوفاء والانتماء. يتحدث محمد بن قيطون²⁵ الشاعر الشعبي عن فرسه الذي مات حزناً على فراق حيزيا، كما لو كان كائناً إنسانياً، فيقول في قصيدة "عزوني يا ملاح"²⁶:

عَوْدِي فِي ذَا التَّلْثُولُ - رَعَى كُلُّ خَيْوُلٍ - وَإِذَا وَلَّى الْهُوُلُ

شَاوُ الْمَشْلِيَّةِ²⁷

مَا يَعْمَلُ ذَا الْحَصَانُ - فِي حَرْبِ الْمَيْدَانِ - يَخْرُجُ شَاوُ الْقَرَانِ

أُمُّهُ رَكْبِيَّة²⁸

تَوَفَّى ذُو الْجُوْدُ - وَلَى فِي الْأَوْهَادِ²⁹ - بَعْدَ أُخْتِي مَا زَادُ

يَحْيَا فِي الدُّنْيَا

الصورة هنا تميل إلى الحميمية، حيث تتحوّل الخيل إلى صاحب روحي، فالحصان كان رفيق الشاعر في لقاءاته بمحبوبته، وقد ألف رؤية حيزيا، ويحوم حول هودجها، إلا أنّ الفرح تحوّل إلى حزن بعد موتها وانتهت القصة بموت الفرس بعد شهر من موت حيزيا. هذا يعكس طبيعة الشعر الملحون المتفاعل مع العلاقات الإنسانية.

وشعراء الملحون يربطون الحصان أيضاً بالهوية المحلية، فيذكر نوع الفرس، لونه، وسلالته، بل وحتى تقاليد تربيته من مأكله ونوع السروج التي تستعمل حسب المناسبة. وهذا ما نجده في قصائد الفانتازيا³⁰ أو القصائد التي تُقال في موسمي الصيف أو الخريف وهي فترة الأعراس والاحتفالات وما يطلق عليها بالوعدة³¹، حيث تكون الخيل هي محور الفخر الجماعي والمشهد الاحتفالي.

وهذه الصورة الاحتفالية التي يسجلها الشاعر في مشهد بديع، الفرسان في لباسهم التقليدي المزين بالخيوط الذهبية والذي يحمل مثال الفخر والقوة، فوق خيولهم ذات الأصول العربية، يتنافسون في ميدان واسع، مع طلقات البارود، يتسابقون في جوّ من الحماس والنشاط. حيث يصف الشاعر مصطفى بن ابراهيم³² هذا المنظر فيقول:

ارْكَابُ مَ الْبَعْدِ يَبَانُ شَعَالَةً وَالْقَاطُ كَمْخَةٌ وَالسَّرَجُ فِيْلَالِي³³

بَارُودٌ يَخْرُجُ مَ جَعَبٌ يَنْكَالِي شُبَانٌ تَنْطَحُ فِي الشُّومِ بِمَشَالِي³⁴

يمثّل هذا المنظر جزء مهما من التراث الشعبي الذي أطلق عليه الفولكلور الشعبي، والذي حافظ عليه الأدب الشفاهي المحفوظ في الصدور، إلا أنّ هذا الإرث يعاني خطر الضياع بسبب الإهمال وعدم الاهتمام به.

كما نجد أيضا شدة اهتمام العرب بأصول خيلهم والحفاظ على السلالة العربية الأصيلة، إذ يقول:

قَبْلُ أَلَا يَرْقُبُ الْعَلَامُ سَرَجَتْ عَلَى خَيَارِ خَيْلِي

الْأَزْرَقُ عِنْدِي اللَّجَامُ أَمَّهُ صَحْرَى وَبُوهُ تَلِي³⁵

والاستعارة التي نجدها في الشطر "الأزرق عندي اللجام" هي صورة بلاغية فيها دلالة عن عناد الفرس وتعتته لتقبل اللجام وتحكّم الفارس في حركيته. كما ينعت الشاعر فرسه بالقوة التي اكتسبها من خلال تزاوج الأصلين الصحراوي والتلي.

نجد شاعرا آخر يشبه جواده لشدة بياضه بالعائد من العمرة، بالإضافة إلى اللون يصفه بالنبيه الذي يفهم إشارة صاحبه فيستجيب له، وهذا له دلالة على أنّ بين الفارس وفرسه نشأت علاقة مودة وألفة، فصار بينهما تواصل روحي، إذ يقول:

أَبْيَضُ نَاصِعٌ كِي اللَّيِّ جَائٍ مِنْ عُمْرَةٍ كِي يَرْمَزُ لُو رَاكِبُو يَفْهَمُ مَعَاهُ

في الشعر الملحون، تظهر الخيل بصورة أكثر ارتباطاً بالحياة اليومية والعاطفة الشعبية. يتذكر الشاعر مصطفى بن براهيم الوطن بعد هجرته إلى المغرب وحنينه لمظهر متعلق بهويته وهو ركوب الخيل، في قوله:

قَلْبِي تَفَكَّرَ الْأَوْطَانَ الرَّهْوُ وَرَكُوبُ الْخَيْلِ³⁶

فالفروسية هنا مظهر من مظاهر الفرح، نجد الشاعر يطيل في وصف الفرس من حيث لونه وسرعته، يقول في قصيدة "سَرَجُ يَا فَارَسُ اللَّطَامِ"، وهي قصيدة غزلية تشابه قصائد الجاهليين في وصف حركة الجواد وسرعته:

لَزَرَقُ شَلَوَاخِ اللَّجَامِ يَتَحَوَّلُ صَيْدُ جَايٍ فَالِي
قُرْصَانِ الْبَحْرِ كَانَ عَامِ إِذَا سَكَنَهُ الرِّيحُ يَجْلِي³⁷

وإذا تأملنا مفردات القصيدة نجدها فصيحة غير أنّ النطق العامي يغيّر من شكلها ف: اللَّطَام أصلها اللطيم وهو الفرس الذي في جبهته غرة بيضاء. والأزرق هو من ألوان الخيول المحببة عند العرب، يصفه الشاعر في تحريكه للجمام، ويشبّه بالطريدة المسرعة عند صيدها، وقرصان البحر في إقدامه وكالريح في سرعته.

ثالثاً: مقارنة فنية

إنّ تحليلنا لهذين الشكلين من الشعر، يجعلنا نكتشف أنّ الشعر الملحون ما هو إلا امتداد للشعر الفصيح من حيث الخصائص الفنية، وإن كانت متفاوتة بين الشعراء، وهذا ما يراه الدكتور العربي دحو في قوله: "إنّ الصورة التي يمكن أن نلمسها في النصوص بصورة عامة، لا تبتعد عن الموروث الثقافي العربي الأصيل".³⁸ فالشعر الملحون قد ورث الدور الذي كان يقوم به الشعر الفصيح، كما ورث كثيراً من خصائصه الفنية، فانتقلت السيادة والشرف من الشعر الفصيح إلى الشعر الملحون في مواضيع عدّة خلال القرون المتأخرة. ويرجع الأستاذ عبد الحميد حاجيات السبب في ذلك إلى أنّ: "الشعر الفصيح أصبح غالباً محدوداً في نخبة مثقفة، والشعر الشعبي هو بحق لسان الجماهير، وترجمان مشاعرها وآرائها، وديوان أخبارها".³⁹

وعليه فالخيل تعتبر أحد أعرق الرموز التي رسّختها المخيلة العربية. وقد احتلت مكانة بارزة في الثقافة الشفهية والمكتوبة، سواء لدى النخبة في الشعر الفصيح أو في الشعر الشعبي. إذ أنّ مقارنة صورة الخيل بين الشعر الفصيح والشعر الملحون تمثّل مدخلاً لقراءة تحولات الذوق الفني والمخيال الجمعي العربي. فبينما تركز صورة الخيل في الشعر العمودي على البنية القتالية والبطولية، نجد في الشعر الملحون تتّجه نحو التعبير عن الأبعاد الوجدانية ومقصورة في استعمالها على الجوانب الترفيهية. وهذا لا يعكس مجرد تغيير في وظيفة الصورة، بل تحولاً عميقاً في بنية الثقافة نفسها.

حيث أنّ الشعر العربي القديم يحتفي بالخيال في ميدان المعركة، فهي تجري وتكرّر وتفرّ، وتشارك الفارس في صنع المجد، أما في الشعر الملحون فالمجال الزمني والمكاني مختلف، إذ تصبح الخيل حاضرة في رحلة الشاعر إلى محبوبته أو في الأعراس، وفي طقوس الفانتازيا، وفي الحنين إلى الأصل والهوية، ما يعكس حساً جمالياً أكثر ارتباطاً بالمجتمع والذاكرة الشعبية.

إلا أنّ هناك تشابه للصورة الفنية في اللونين الشعريين، نجدّها غالباً مقترنة بالجانب البلاغي والرمزي، في وصف الفرس من حيث أصله العربي الأصيل، قوته، سرعته، اختلاف ألوانه، زينته ووقع خطواته. كما أنّ اللغة تلعب دوراً أساسياً في بناء هذه الصورة، فبينما يلجأ الشاعر الفصيح إلى ألفاظ فخمة وقوية، نجد الشاعر الشعبي يعبر عن إحساسه بلغة عامية، تهدف إلى تقريب المعنى والتأثير على المتلقي مباشرة، في بيئة شفوية تعتمد الأداء والتفاعل.

وهذا يجعلنا نخلص إلى فكرة ختامية، وهي: أنّ صورة الخيل تبقى تمثّل في الشعر العربي الفصيح والملحون قوّة ومجد الشاعر، بما يجعلها صورة حية ومستمرّة عبر الزمن.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة التحليلية للصورة الفنية للخيال في الشعر العربي، من العصر الجاهلي إلى الشعر الملحون، يتضح أنّ هذا الرمز لم يكن مجرد موضوع شعري عابر، بل كان محورا فنيا وثقافيا يعكس تحولات المجتمع والمخيال العربي عبر العصور. لقد كشفت الموازنة بين النموذجين الشعريين عن نتائج بحثية متعددة الجوانب يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أولاً، امتداد الصورة الرمزية: على الرغم من الفارق الزمني واللغوي، فإنّ صورة الخيل في الشعر الملحون لم تنفصل عن أصولها في الشعر الفصيح. كلا الشعريين يرى في الخيل رمزاً للعزة، والقوة، والأصالة. لقد ورث الشعر الملحون هذا المخزون الثقافي، واستمر في توظيف الخيل كرمز للرجولة، الشرف، والمجد، كما يتجلى في قصائد الفانتازيا والوعدة التي تحاكي بطولات الماضي.

ثانياً، تطور الوظيفة الفنية: أبرزت الدراسة تحولاً جوهرياً في وظيفة الصورة الفنية للخيال. ففي الشعر الجاهلي، كانت الخيل كياناً قتالياً بطولياً بامتياز، محوراً للمعركة والغزو، وشاهداً على مجد الفارس وعنصراً أساسياً في الذود عن الحمى والتفاخر القبلي. أما في الشعر الملحون، فقد انتقلت صورتها إلى مجالات أخرى، لتصبح رمزاً للحنين، الوفاء، والانسجام العاطفي، ورفيقاً حميمياً في رحلة الشاعر الوجدانية، أو جزءاً من مشهد احتفالي يعكس الهوية الجماعية.

ثالثًا، التأثير بالبيئة اللغوية والثقافية: يكشف الاختلاف بين النموذجين عن تأثير البيئة على الأسلوب الفني. فبينما اعتمد الشاعر الجاهلي على لغة فخمة ومحسنات بلاغية معقدة ليرسم صورة فنية مثالية للفرس، استخدم الشاعر الملحون لغة عامية بسيطة وعاطفية، مما جعل الصورة الفنية أقرب إلى المتلقي وأكثر حميمية وتفاعلاً. هذا التحول يعكس الانتقال من ثقافة النخبة إلى الثقافة الشعبية التي تعتمد على الأداء الشفهي والتلقائية. رابعًا، الاستمرارية والخصوصية: رغم هذا التحول، احتفظ كلا الشكلين الشعريين بخصوصيتهما. فبينما يظل الشعر الفصيح مرجعًا تاريخيًا وثقافيًا للقوة والبأس، يمثل الشعر الملحون مرآة حية للحياة اليومية والعاطفة الشعبية، حيث تُعاش الخيل كشخصية تمتلك هوية وصوتًا. هذه الخصوصية هي ما أثر في استمرارية صورة الخيل عبر الأجيال. في نهاية المطاف، يمكن القول إنّ الخيل في الشعر العربي الفصيح والملحون هي أكثر من مجرد كائن حيّ، إنّها صورة حيّة ومستمرّة ترمز إلى قوة الإنسان العربي، مجده، وعمق ارتباطه بأصالته. لقد استطاعت هذه الصورة أن تتجدد وتتكيف مع مختلف العصور، محافظة على جوهرها الرمزي، بينما تكتسب أبعادًا جديدة تعكس التحولات الاجتماعية والثقافية، مما يؤكّد أنّ الإرث الثقافي العربي ليس جامدًا، بل هو في حالة تدفق وتفاعل مستمرّ.

الهوامش:

- 1- أنظر محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر بيروت لبنان، مج 5 باب الخاء مادة خيل، ص 194.
- 2- أنظر أسماء الخيل في كتاب الخيل لأبي سعيد الأصبغي، والخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.
- 3- سورة العاديات، الآية 1-5.
- 4- الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي
- 5- ينظر محمد بن عبد القادر الجزائري: نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد، المطبعة الأهلية، بيروت لبنان، 1908، ص 11.
- 6- أحمد بن حنبل: المسند، الحديث رقم 18492، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، مج 31 ص 472.
- 7- أحمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1983، ج 1، ص 134-152.
- 8- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1965، ط 2، ج 2، ص 448.
- 9- المخلاة: كيس يعلّق على رقبة الدابة، يوضع فيه العشب.
- 10- الحيوان، ج 1، ص 32.
- 11- محمد بن عبد القادر الجزائري: نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد، ص 18-19.

- ¹² - محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت لبنان، طبعة جديدة منقحة، 2005، ص 290.
- ¹³ - المرجع السابق، ص 19.
- ¹⁴ - امرئ القيس: الديوان، دار صادر، بيروت، ص 23.
- ¹⁵ - أبو عبد الله الزوزني: شرح المعلقات السبع، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 2002، ص 194.
- ¹⁶ - الفرط: الفرس المتقدمة السريعة الخفيفة، والشكة: السلاح. ومعنى البيت: ولقد حميت قبيلتي وأنا على فرس أتوشح بلجامها إذا نزلت لأكون متهيباً لركوبها.
- ¹⁷ - ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 1، ص 144.
- ¹⁸ - أبو زكريا التبريزي: ديوان الحماسة، دار القلم بيروت لبنان، ج 1، ص 40.
- ¹⁹ - أبو عبيدة معمر بن المثنى: الخيل، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ط 1، 1358 هـ، ص 3.
- ²⁰ - الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1992، ص 177.
- ²¹ - أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية القاهرة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1959، ط 1، ج 15، ص 381.
- ²² - ينظر النويري: نهاية الإرب، ج 9، الكسائي: قصص الأنبياء، الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ج 1، عبد الله الكلبي: كتاب الخيل، محمد بن السائب الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام.
- ²³ - ينظر ابن الأعرابي: أسماء خيل العرب وأنسابهم وذكر فرسانهم، تحقيق نوري حمود القيسي وآخرين، عالم الكتب بيروت، 1987.
- ²⁴ - يطلق على الشعر الملحون عدّة تسميات حسب كل منطقة وما شاع بها من الاستعمال، منها: الشعبي، العامي، الشعر البدوي، الكلام الموزون، القصيد، النظم، الزجل،... وفي تصوّرنا أنّ إطلاق مصطلح الشعر الملحون هو الأنسب من بين التسميات الأخرى، سواء لدلالة كلمة ملحون أي ما لا يلتزم بالقواعد النحوية والصرفية والأعراض الخليلية، أو لأنّه يتصل اتصالاً وثيقاً بالغناء، وهذا دفعنا إلى اختيار مصطلح الملحون.
- ²⁵ - عاش الشاعر محمد بن قيطون ما بين 1843-1907، شاعر شعبي، له ديوان شعري جمعه أحمد عاشور، أشهر ما قاله قصيدة "حيزيا"، رغم أنّ له قصائد أخرى في تمجيد أبطال المقاومة الشعبية ومدح علماء الدين وشيوخ الزوايا وفي المديح النبوي والشوق إلى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. نشأ الشاعر في بيئة أدبية وروحية وهي واحة سيدي خالد مسقط رأسه، ويأحدي زوايا القرية وهي الزاوية الجرونية تلقى الشاعر تعليمه الأولي فحفظ القرآن وتفقه في الدين، ثمّ تنقّل وتحوّل وزار الزوايا المشهورة كالزاوية القاسمية بالهامل (بوسعادة) ومختلف الزوايا المجاورة، وكان يحضر الحلقات الفقهية، ثم أصبح يعلم الصبيان القرآن الكريم، ففي هذه الأجواء تفتقت موهبته الشعرية. وتمكن الشاعر من نقل قصة حيزيا إلى الأجيال بطريقة جميلة.
- ²⁶ - أحمد الأمين: صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة الجزائر، 2007، ص 62.
- ²⁷ - هذا الحصان القوي كان يقود الخيول وإذا قامت الحرب تجده دائما في المقدمة.
- ²⁸ - حصان أصيل لأنّ أمه أصيلة، فالركبية معناه الفرس العربي الأصيل.
- ²⁹ - ولي في الأوهاد: أي صار الحفرة.

- 30 - الفانتازيا: عبارة عن محاكاة للتدريب العسكري للفرسان بما يسمح لهم باختيار أفضل الفرسان والخيل من أجل الحروب، وتحولت إلى ممارسة احتفالية من أجل التسلية والفرجة ومظهرها من مظاهر الافتخار، يستعمل فيها البنادق وإطلاق البارود.
- 31 - الوعدة من الوعد وهي عبارة عن احتفال ديني يقوم به أشخاص من سلالة الوالي الصالح وأتباعه، يقام أحداث الحفل حيث يوجد ضريحه. فتذبح الخرفان كعمل طقوسي ويطهى الطعام لإطعام الحاضرين، وتشكل حلقات استعراضية لإظهار الفروسية يطلق عليها الفانتازيا، وتعد مجالس الشعر والغناء الشعبي.
- 32 - مصطفى بن إبراهيم: من أشهر شعراء الملحون الجزائري، عاش ما بين 1800-1867، نشأ بقرية بو جبهة ولاية سيدي بلعباس، كان مقرئا للقرآن، ثم زاول عددا من المناصب كالقضاء والقيادة، إلا أنه أجبر على العيش في مدينة فاس بالمغرب الأقصى لمدة خمس سنوات، وقفل راجعا إلى مسقط رأسه بو جبهة. كان معروفا بالغناء في الأعراس والحفلات والمناسبات، وكتابة الشعر الشعبي. كما كان مشهورا بالكرم وسهرات المجون. ودفن بقرية المسيد في سيدي بلعباس، واعتاد الناس أن يكرموا قبره ويفيدون إليه زائرين إلى يومنا هذا.
- 33 - الشاعر يهتم بالوصف الدقيق للباس الفارس ونوع السرج الجيد الذي وضعه على حصانه، مع استعمال البنادق كطقس أساسي في هذا الاحتفال.
- 34 - عبد القادر عزة: فحول الملحون مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية، قصيدة قلبي تفكر الأوطان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص 225.
- 35 - المرجع نفسه، قصيدة "سرج يا فارس اللطام"، ص 63.
- 36 - نفسه، ص 224.
- 37 - نفسه، قصيدة "سرج يا فارس اللطام"، ص 59.
- 38 - العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ج 1، ص 220.
- 39 - عبد القادر عزة: فحول الملحون، مقدمة الكتاب، ص 8.

قائمة المراجع:

- أحمد الأمين: صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة الجزائر، 2007.
- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1، 2001.
- أحمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1983، ج 1.
- امرؤ القيس بن حجر الكندي: الديوان، دار صادر، بيروت، د.ت.
- العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ج 1.

- الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1992.
- أبو زكريا التبريزي: ديوان الحماسة، دار القلم بيروت، لبنان، ج 1.
- أبو عبد الله بن الأعرابي: أسماء خيل العرب وأنسابهم وذكر فرسانهم، تحقيق نوري حمود القيسي وآخرين، عالم الكتب بيروت، 1987.
- أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية القاهرة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1959، ط 1، ج 15.
- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1965، ط 2، ج 2.
- أبو عبد الله الزوزني: شرح المعلقات السبع، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 2002.
- أبو عبيدة معمر بن المثنى: الخيل، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ط 1، 1358 هـ.
- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر بيروت لبنان، مجلد 5.
- محمد بن عبد القادر الجزائري: نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد، المطبعة الأهلية، بيروت لبنان، 1908.
- محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت لبنان، طبعة جديدة منقحة، 2005.
- عبد القادر عزة: فحول الملحون، مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.